

المحاضرة 04

مظاهر ومعالم تطور المدن الإسلامية

01/ مظاهر تطور المدينة المنورة:

يعتبر تطور المدن في مجالات الحيات المختلفة من أهم معالم تطور الحضارات، ففي الحضارة العربية الإسلامية شكل إنشاء مدينة الرسول صل الله عليه وسلم الكيان السياسي الأول كنواة للدولة الإسلامية فيما بعد، وتميز إنشاء هذه المدينة برقي فكري وحضاري حيث أخذت مجموعة من الخصائص جعلت منها مدينة متميزة ونموذج فريد لتأسيس مدن إسلامية أخرى في إطار الفتوحات الإسلامية، ومن أهم هذه الخصائص ما يلي:

- تنظيم الشوارع والأحياء وفرض قواعد لإنشاء الطرقات (عرض الطريق من 3.5 الى 05 متر).
- للدفاع عن المدينة وحمايتها وتأمينها تم حفر خندق بطول 06 كلم (12000 ذراع) شارك فيه 300 مسلم، وهو عمل حربي ضخم في ذلك الوقت أنجز في 24 يوم فقط.
- إنشاء أماكن خاصة بالتدريب على شكل معسكرات قريبة من المدينة لتكوين الجنود المجاهدين.
- إنشاء مقرات للعلاج تهتم بعلاج المرضى والمصابين في الغزوات.
- إنشاء دور الضيافة لاستقبال الوفود الرسمية الزائرة للمدينة.
- إنشاء السجون لمعاقبة المجرمين.
- سن نظام الوقف لتطوير المرافق العامة في المدينة .
- فرض نظام الجزية أو الخراج على البلاد المفتوحة لتقوية خزانة بيت مال المسلمين.
- إنشاء أماكن خاصة بالذبح (مذابح).
- ظهور حركة علمية قوية مثل علوم القرآن والحديث والتفسير والفقهاء.

زاد عدد المدن الإسلامية بشكل واضح في حكم عمر ابن الخطاب بفعل كثرة الفتوحات الإسلامية، وأصبحت تدريجياً الدولة الإسلامية تضم سورية والعراق ومصر، وتم إنشاء قواعد متقدمة لقيادة الجيوش الإسلامية في هذه الأقاليم الجديدة وكذا مراكز إدارية لإدارة شؤونها. وتطورت هذه المدن من نواحي التخطيط العمراني، فمثلاً أصبح عرض شوارع مدينة البصرة الرئيسية حوالي 30 متراً، وتزايد عدد سكانها ليصل إلى حوالي 60 ألفاً في سنة 22 هجري، ووصل في العصر الأموي إلى 300.000 ساكن، كما وصل عدد سكان قرطبة في عهد المنصور إلى نصف مليون نسمة.

وتوسعت التجارة والأعمال وازدهرت الأسواق في هذه المدن الإسلامية، واشتهرت مدن معينة بهذه الأسواق الكبيرة كدمشق وفاس، كما تطورت المدن الإسلامية في مجال التخلص من النزعة القبلية خاصة في العصر العباسي، حيث ظهرت ملامح المجتمع المتمدن البعيد عن العصبية والقبلية، التي كانت سبباً في تهديد وحدة الدولة الإسلامية سابقاً عند ظهور الفتن في العراق في حكم الحجاج. أما في المجال الحربي فقد تطورت أساليب تحصين المدن الإسلامية وتأمينها من العدوان الخارجي، من خلال بناء الأسوار وحفر الخنادق وإنشاء معسكرات تدريب الجيوش المنظمة وحتى تربية الخيول المستعملة في الحروب. كما كان لدور الأوقاف المعتمدة في المدن الإسلامية دور مهم جداً في تطويرها عمرانياً واجتماعياً، حيث ساهمت في إنشاء واتساع المرافق العامة، وظهر في المدن الإسلامية أيضاً منهج دعم الفئات الفقيرة في بناء المساكن من خلال توزيع الأراضي والأموال اللازمة لذلك.

أما في المجال العلمي فقد تطورت الحركة العلمية موازاة مع تطور المدن الإسلامية، وتطورت مناهجهم العلمية في علوم القرآن والحديث والفقه، وظهرت المدارس والزوايا كمؤسسات دينية وعلمية تكون فيها أبناء المسلمين، ومن أهم مفكري الإسلام ابن أبي الربيع والماوردي وابن حزم وابن خلدون والخوارزمي وابن الهيثم والإدريسي وغيرهم كثير. ومنه فإن المدن الإسلامية وصلت إلى أوج حضارتها في العصرين الأموي والعباسي حيث بلغت حدود الدولة الأموية من حدود الصين وبورما شرقاً حتى حدود

فرنسا واسبانيا غربا، واستمرت هذه القوة الى الدولة العثمانية، ولكن بعد سقوط الدولة العثمانية بدأ التوسع الاستعماري الأوروبي على البلاد الإسلامية وفقدت معظم مدنها الكبرى. ومنه فقد توهجت الحضارة العربية الإسلامية خلال الفترة الممتدة من القرن السابع ميلادي الى القرن الخامس عشر ميلادي (01هـ-08هـ) في جميع المجالات (السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية والفنية والأخلاقية والعمرانية)، وهو ما وضع لها مكانتها وقيمتها في تاريخ البشرية، وشكل قاعدة لنهضة الحضارات التي جاءت بعدها، وذلك رغم كل محاولات طمس معالمها وتهميشها والتقليل من شأنها من قبل الغربيين.